تعريف بالكتاب

يقول الشاعر روبنسون فى قصيدة عنوانها : «واشوقا الى شاعر» :

« واشوقا الى شاعر : الى مشعل ساطع
« يشق هذا البصيص الشاحب الذى لا يتغير
« وينفث الحياة كرة أخرى فى عرائس الشعر التى ضلت عن السبيل
« ويملأ البرناس باشراق جديد
« يطرد أقزام الغناء فتلوذ بالفرار
« أولئك الذين يصوغون الألحان صوغ الآلات
« ألحانا بلا روح ، تنبض هنيهة
« ثم تنطوى أبدا فى ظلمات ليل مطبق ليس له نهار

* * *

« أى معنى لعصرنا هذا العقيم ؟
« هاهنا الرجال والنساء والأزاهير
« هاهنا مطالع الفلك ومغارب الشمس على عهدها القديم
« ما معنى هذا ؟ أما من أحد ينهض لينتزع بيمينه
« علما خفاقا من السماوات الغربية
« يطبع عليه اسمه ليبقى على الأبد كرة أخرى « بقاء الخالدين ؟ »

* * *

هذه صيحة عالية عبر بها الشاعر عن حاجة وجدانه ، ولنا أن نقول : بل عبر بها عن حاجة العصر كله ليعطى العصر معناه ، لأنه عقيم بغير معنى ـ كما قال ·

فالشعر الذى يحتاج اليه عصرنا هو ذلك الشعر الصادق الذى يحتاج اليه كل عصر من عصور الحياة الانسانية سلم من الزيف والتفاهة ، ومن مغالطات انفاق والعجلة ·

ولا شعر غيره من قديم أو حديث ·

لأنه هو ترجمان « الشخصية الانسانية » التى نعرف منها الانسان فى كل صورة من صوره ، وكل طوية من طواياه. ونعرفه منها مطبوعا بطابع الخالق الذى لا تغشيه أكاذيب الزمن ، ولا تكسوه حلة ملفقة من تمويهات العرض وزخارف الأزياء ·

والشعر الذى يحتاج اليه العصر غير الشعر الذى يشـــيع فيه أكثر الأحيان ·

فقد يكون الشعر الشائع هو نفسه عرضـــا من أعراض العصر التى تدفعنا الى الشعر المطلوب ، وتلجئنا الى التغيير ، أو الى بث الروح الحى ـ كرة أخرى ـ فى مزامير العرائس ، كلما ضلت سواء السبيل ·

وانشعر الشائع الذى تمنى الشاعر اشراقا جديدا يطرد أقزامه الى الظلام ، انما هو نقيض شعر «الشخصية الانسانية» فى العصر الحديث .. لأنه ينطق بلسانين كلاهما خافت غير مبـــين ، وكلاهما يطمس هـــذه الشخصية ، ويمسح ملامحها التى جعلتها « ذاتا » مستقلة بين الكائنات ذوات النفوس والسرائر ·

ان شعر العصر الذى تبرم به الشاعر ينطق بلسان الزحام المغـامر ، فينطوى فيه الانسان الفرد ، وتتمثل فيه الخواطر الآدمية كما تتمثـــل أعضاء البدن فى الكساء المجهز لكل لابس تركبت فيه تلك الأعضاء ·

هذا ، أو هو ينطق بلسان آخر هو أضيع للشخصية الانسانية من لسان الزحام ، وهو لسان الثقافة المصنوعة ، والآداب المنقولة من طريق الحكاية والتلقين ·

فالانسان « المثقف » على هذا النمط يخاف دوافع الفطرة الانسانية ، لأنه هو مخلوق « مصنوع » من أفكار ينتحلها ولا يصدقها ، وأمثلة عليا

يحكيها ولا يؤمن بها · وعـــلامة الثقـــافة عنده أن يحجم عن العواطف « الفطرية » احجامه عن الأخاديع والأباطيل ، لأنها سذاجة من سذاجات الأقدمين قد تولى بها الزمن ، وباب من أبواب الشكوك لا تنبعث منـــه حماسة صادقة ولا تطرقه سجية واعية · فهذا المثقف المصنوع يتطلب من شاعره أن يعلن علامة الاستخفاف على كلتا شفتيه قبل أن يفتحهمـــا بكلمة من كلمات القصيدة ، وينتظر منه أن ينظم كل قصيدة وكأنما يقول فى ثناياها : انها تقال أو لا تقال على حد سواء ، وانها وهم من الأوهام ، ان تمثلت فى غمرة الزحام ، أو تمثلت فى وجه انسان يحمل عليـــه كل براقع الاستخفاء والانزواء ·· !

كذلك كان « شعر العصر » الذى لا معنى له ولا للعصر ـ كمـــا قال روبنسون فى تلك الأبيات ·

أما الشعر « المطلوب » فى تلك الصيحة ففى دواوين الشاعر نفسه دليل عليه ، ومثال له ، وحجة من أصدق الحجج على الحاجة اليه · وقد كان روبنسون يشتاق الى ظهور الشاعر المنتظر اشتياقا حثيثـــا جادا لا مراءاة فيه ، فلم تكن دعواه يوم صاح تلك الصيحة أنه هو الشـــاعر الموعود ، ولكنه آمن برسالته العالية فتمنى أن تكون من نصـــيبه ، وأن يجتهد فيها اجتهاده على حسب اقتداره · فاعتزم منذ مطلع شـــبابه أن يكون شاعرا ، أولا شىء ··· ورأى بحق أن الرسالة جديرة بهبة الحياة كلها غير منقوصة ولا مجزوءة ، فلم يشغله عنها شاغل قط ، على خيبة أمله فيها ، وقلة جدواها عليه ·

ونقول خيبة أمله ، بل آماله ؛ لأنه بعد جهاده الطويل لم يصب من النجاح المادى بعض حقه ، ولم يصب من النجاح الأدبى كل حقـــه عند جمهور قراء الشعر ونقاده ·· ولكنه ـ مع هذه الخيبة الجائرة ـ يزود المؤرخ الأدبى بترجمة حافلة بالعبر والتجارب القيمة ، ومن عبرها الكثيرة أن للشعر جمهورا فى كل عصر من عصوره غير جمهوره الذى يصح أن يسمى بجمهور القراء المحترفين مع قادتهم من النقاد المحترفـــين والأدباء

المحترفين ، تمييزا لهم ممن يصح أن نسميهم على هـــذا النحو بالقراء المتطوعين ، أو جنود الأدب « غير النظاميين » وهم أولئك الذين يقرءون بالرغبة لا بالعادة ولا بالخطة المرسومة ، ولا يترددون فى قبول الشعر الذى يبلغ الى قرارة نفوســـهم بغير عائق من « المراســـيم » الأدبية ، ولا « التسعيرة » العرفية فى لوائح السوق ... ولا يعدم الشاعر سببا للوصول الى هذا الجمهور المتطوع ، ولو من طريق المصادفة ، أو طريق الخطأ فى التبليغ . وهكذا استطاع روبنسون أن يجد القراء المتطوعين ، بل النقاد غير المحترفين من كتاب الصحف السيارة ، وهم فى الغالب غير كتاب المجلات « الدورية » التى تتخصص للنقد و « التسعير » .. بل من هذه الطريق وصل ديوان الشاعر الى الرئيس تيودور روزفلت فاستفاد صاحبه بعض الفائدة فى وظيفة تكفل له معاشه ، ولو لم يكن ابن الرئيس زميلا له تعمد أن يلفت اليه أنظار أبيه ، لما استفاد هذا الشاعر المغبون شيئا على يد ذلك القارىء « المتطوع » الكبير !

ومن العبر التى تزودنا بها ترجمة هذا الشاعر أن استعداد الشاعر لرسالته أهم من استعداد الجمهور للاصغاء الى تلك الرسالة ، سواء أكان من جمهرة القراء المحترفين أم القراء المتطوعين .

ويتحقق استعداد روبنسون لرسالته ـ قبل كل شىء ـ من ايمانه « بالشخصية الانسانية » أو من ايمانه بأن حب الحيـــاة حقيقـــة جدية ايجابية ، لا يسهل عليه أن يعرفها بابتسامة الاستخفاف ولا بكلمـــة من كلمات السخط على أطراف اللسان . وقد همـــه أن يصحح رأيا لبعض الكتاب ذكر فيه أن الدنيا فى نظره ليست بالجميلة ، ولا بالمحبـــوبة ، ولكنها سجن ثقيل . فلم يتمهل أن كتب اليه معقبا مصححا كأنها كانت تلك الدنيا عملا من أعماله الفنية ! ... كلا . ليست الدنيا سجنـــا ، ولكنها روضة أطفال روحية نخطىء بين جدرانها وبين المكان الالهى فيها ...

وكان أكثر مطالعاته من الشعر فى دواوين تتسم بالجد ولو بلغ مبلغ الصرامة ، فكان اعجابه بالشاعر هاردى المتشائم لا يقل عن اعجـــابه

بالشاعر برونتج المتفائل ، وكان ويتمان الذى يطوى التشاؤم والتفاؤل معا فى أريحيته الواسعة مثالا لمصير الشاعرية الصادقة فى عصره « لأن آياته قد بلغت ختامها وأصبح الصادح بها اسما ·· وهكذا بقيت الأسماء من حقائق الله ، والحب ، والحياة ، والموت ·· وبالأمس كانت الأغنيـــة هى الانسان ، فاليوم يصبح الانسان هو الأغنية الجديرة بالترداد » ·

ولم يكن روبنسون فى تشاؤم هاردى ، ولا فى عمق برونتج ، ولا فى أريحية ويتمان ، ولكنه كان هو هو نفسه ـ بنصيبه من الشـــخصية الانسانية ـ حين التقى بكل منهم فى تشاؤمه وعمقه وأريحيته ، على قدر حصته الصادقة من هذه الخصال · وأصاب الأستاذ كوهن حين قال فى الحوار التالى : ان روبنسون أدخل سليقته ونظرته الخاصة التى أخلص لها طول عمره الى ميدان الشعر ، وان خصائص أسلوبه وعباراته الذاتية كانت تختلف تمام الاختلاف عن كل ما اتسم به من حاول أن يجاريهم من الشـــعراء ·

ولم يخطىء الأستاذ بريزون حين يسأل مستنكرا : « هل نستطيع أن نجد فى الوقائع الخاصة من حياته العناصر التى خلق منها أدبه ؟ »

فذلك غير ممكن كما قال ، وقد يكون تفسير قصائد الشاعر من وقائع تجاربه « الذاتية » خطوة طائشة ، كما قال الأستاذ كوهن فى الاجـــابة عن ذلك السؤال ·

لكن المهم من تلك التجارب أنها تجارب « ذات انسانية » يعيشـــها الشاعر بوجدانه ، وليست كسوة من التجارب المجهزة نغيب بها فى غمار من الزحام المتشابه ، ولا هى برقع نرسمه لأنفسنا لنتوارى من خلفه فى محفل المرافع والأزياء ، ومهما يكن مصدر التجربة من هذا الانســـان أو ذاك فى عالم الواقع ، ومن تلك الصورة أو تلك من صور الخيال ـ فهى تجربة الشاعر فى أعماق وجدانه كلما أحسها ذلك الاحساس الكـــافى لخلقها وابرازها الى عالم الأحياء ، وقد قيل فى التمييز بين أبطال شكسبير وأبطال غيره من عامة المسرحيين ان البطل الشكسبيرى يعيش بعد نزول

الستار ، وان سير الأبطال الآخرين تبتدىء بدخولهم الى المسرح وتنتهى بخروجهم منه • ومثل هذا يقال عن تجربة الشاعر المتخيلة انها هى تجربته الذاتية منذ اللحظة التى تستعير فيها الحياة من وجدانه الخفى وكلماته السارية الى الأسماع والأرواح •

ولا تستجاب صيحة روبنسون التى تلهف بها على الشاعر المنظور خيرا من هذه الاستجابة فى شخصه وفى شعره الذى لم يلتبس قط بشعر سواه ، ولو كان من وحى العرائس الأولى ، أو من فيض الأساتذة المفضلين لديه •• وسيظل فضله البارز بين الكثيرين من مشاهير عصره أنه وجه وقوام بين براقع وأشباح ••• ولعل منها ما هو أجمل وأمثل ، ولكنه يكون كذلك بمقياس الأشكال والرسوم ، لا بمقياس الحياة والحركة .

عباس محمود العقاد